٩٠

مؤسسة دار الحكمة للثقافة والعلوم الإسلامية

مركز مدرك للتنمية والدراسات الإسلامية

المضامين العقلائية في كلام أمير المؤمنين (ع)

السيد عمار آل يوشع

1445هـ - 2024م

(المضامين العقلائية في كلام أمير المؤمنين (ع))

ملخص محاضرة للسـيد عمار آل يوشـع ألقاها في مركز مدرك للتنمية والدراسـات الإسلامية بحضور مجموعة من الشباب المؤمن حيث أشار الى رؤية تتجه باتجاه العقلنة وطرح المفاهيم العقلائية ومحاولة إبعاد النص الديني وانه ليس فيه تلك العقلنة، وفي هذا الخصوص قد وظف سماحته مضامين كلام أمير المؤمنين عليه السلام العقلائية رادا على أصحاب ذلك التوجه.

بسم الله الرحمن الرحيم

ورد في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين (ع) من كلام له قاله عند تلاوته: (يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)، الخطبة طويلة يقول (ع) في اخرها: (إنّ السّعداء بالدّنيا غدا هم الهاربون منها اليوم. إذا رجفت الرّاجفة، وحقّت بجلائها القيامة، ولحق بكلّ منسك أهله، وبكلّ معبود عبدته، وبكلّ مطاع أهل طاعته، فلم يجز في عدله وقسطه يومئذ خرق بصر في الهواء، ولا همس قدم في الأرض إلاّ بحقّه، فكم حجّة يوم ذاك داحضة، وعلائق عذر منقطعة فتحرّ من أمرك ما يقوم به عذرك، وتثبت به حجّتك، وخذ ما يبقى لك ممّا لا تبقى له، وتيسّر لسفرك، وشم برق النّجاة، وارحل مطايا التّشمير)[1].

هذه من الخطب المهمة التي يزهّد فيها أمير المؤمنين (ع) بالدنيا، ولكن المهم هو المضامين العقلائية والفطرية التي يشير إليها (ع) في هذه الخطبة، وهنا قضية مهمة وهي: أن هناك رؤية تتجه عادةً باتجاه العقلنة وطرح المفاهيم العقلائية ومحاولة إبعاد النص الديني بعنوان أننا نتكلم بالمشتركات، والنص الديني ليس المقدار المشترك بيننا، فنتحدث مع المقابل في التوحيد مثلا فإنه يطلب دليلا عقليا عليه، ومتى قرأت رواية لأثبات ذلك يشعر أنك خرجت عن الموضوعية، وكأنه هناك حساسية مفرطة من النص الديني، وهكذا في الشؤون الاقتصادية، والاجتماعية، والنفسية، والسياسية، فتلاوة النصوص الدينية والتعرض لها لدى بعض المؤمنين من المشغولين بالدراسات الاكاديمية حساسية تجاهها، وهذا القضية يحتاج الانسان أن يغربلها من جديد وأن يعيد النظر إليها بشكل دقيق.

أي يتكلم الانسان بمنطق العقل دائماً، فهل من العقل أن يقبل كلمة لمستشرق معين أو لبروفيسور معين في علم من العلوم ولا يقبل كلمة لأحد علماء الدين أو لأحد المعصومين (ع)؟ فإن كان البحث عن التقييم للكلام وأن هذا كلام المستشرق والأستاذ الفلاني فيه برهان عقلي وتبنيه فطري أولا؟ فإن كان كذلك فهذا يقتضي أن نتعامل حتى مع

[1]. نهج البلاغة: خطب الإمام علي (ع): ج ٢/ ص ٢١٥

الروايات بهكذا طريقة فلا تكون حساسية من النصوص القرآنية والروايات الشريفة، لأن الروايات فيها مضامين عقلية وفطرية وعقلائية، وليست مضامين الروايات دائما هي مضامين دينية شرعية محضة، فالإنسان الذي يرى أن هناك مضمونا وهو فطري فيحاكم المضمون.

ثم هذا النص الديني يقتضي أن يكون بالنسبة للمؤمن مقدم على غيره، فمرة شخص يتكلم مع غير المؤمنين فيحتاج لخطوة سابقة وهي إثبات وجود الدين، فلا نتكلم معه بالنصوص الدينية التي لا تحتوي على مضامين تعبدية شرعية، ونقول له: هناك نصوص دينية فيها مضامين عقلائية لابد لك أن تقيمها بالميزان العقلي والبناء العقلائي وبمقتضيات الفطرة والتعقل، فلا معنى لأن تقول إذا رأيت أسم جعفر الصادق (ع) مثلاً: أغلقوا الملف. ولا معنى لأن تقول: اثبت لي الدين ومن ثم إإتني برواية الامام جعفر الصادق (ع)، لأنه مرة نأتي بكلام الامام الصادق (ع) بعنوان أنه مضمون تعبدي نلزمه به فلا بد أن يكون متدينا، وأما إذا كان غير متدين وكان كلام الامام (ع) مضمونه مضمونا عقلائيا، فطريا، فيه برهان وحجة فيقتضيـ أن يكون عليه حجة كما يكون غيره حجة، وهذه نقطة جوهرية بالنسبة لطالب العلم مهما كان نوع طلبه للعلم، حوزويا أو أكاديميا.

فالإنسان الذي يطلب الحقيقة يقتضيـ أن يبحث عنها في كل مكان وإن كانت بالآيات أوالروايات أو كلام العلماء والفقهاء أو بالتجارب، أما أن تجعل حاجز بينك وبين النص الديني فهو وللأسف الشديد خطوة قام بها بعض الحداثيين وأثرت أثرها البالغ على شبابنا المتدين، وهي قضية جدا حساسة، وإلا هذا النص مثلا الذي تلوناه، فيه مضمون، فحاكم هذا المضمون بغض النظر أنك تؤمن بعصمة القائل أو لا، وعليه حتى الملحد لو أردنا أن نتكلم معه بهذا الحديث فلا بد له أن يلتزم بمضمون الحديث الذي هو مضمون عقلائي.

فمثلاً نرجع إلى نص الخطبة: (وإن السعداء في الدنايا غدا هم الهاربون منها اليوم)، لو أخبرنا أنسان أن بعد الموت هناك جنة ونار وحساب وعقاب، فالعقل ماذا يقول؟ هل

يقول: ألقى الامور حبلها على قاربها ودع القضـــايا منفلتة؟ أم يقول لك: أبحث وأســـأل؟ فالثاني خلاف التعقل لأن المحتمل خطير حتى لو كان الاحتمال ضـــعيفا جدا ما دام المحتمل خطيرا فلا بد للعاقل أن يعتني، فلو سرت بطريق وهناك احتمال واحد بالألف أن فيه مفخخة فهل تعتني بهذا الاحتمال أو لا؟ قطعاً ســـتعتني به للخطر المحتمل وإن كان ضـئيلاً، وإن كان من اخبرك مجهول الحال بالنسـبة لك ولا تعرف مقدار الثقة به، فإذا أتوا حجج وأنبياء وأولياء وهم في قومهم محترمين، وأهل ثقة وأخبرونا بأن هناك حســـاب وعقاب وجنة ونار فيقتضيـــ أن الانســـان يبحث، وإذا لم يبحث فهو ملام عقلا؛ لأن هذا الحجة أثار محتملا خطيرا، وإذا فعل ذلك فلابد أن نهتم نتحقق وهذا مقتضى العقل.

أما إشـــكالية الإعراض عن النص الديني هي قضـــية خاطئة، فالنص الديني بعض الاحيان يكون ســـببا في ملاحظة الانســـان وبحثه وتحريه عن الحقيقة، كما في العالم الان عندما يقولون إن هناك شـــيعة يدّعون أنهم هم الفرقة الناجية، فهناك احتمال يتضـــح للسـامع هو انه قد يكون من الفرقة الهالكة، ويوم القيامة في ضـلال، فهذا يلزمه أن يبحث من هذه الفرقة الناجية، ومن يقول هم الناجين؟ أما لو قال: أنا لا أبحث عن الموضـــوع واقفله تماما فهل هذا بمقتضى- التعقل أم بمقتضى- الترهل؟ أكيدا بمقتضى- الترهل فهو لا يريد أن يفكر، وهذا يعني أنه لا يحترم عقله وعنده مشـــكلة وزحاف على الجانب الفكري وتشوه في فطرته وإلا في الحالة الطبيعية لابد أن يبحث.

فأمير المؤمنين (ع) يتحدث عن مســتقبل وهو خطير: (إذا رجفت الرّاجفة، وحقّت بجلائها القيامة، ولحق بكلّ منســـك أهله، و بكلّ معبود عبدته، وبكلّ مطاع أهل طاعته)، فهناك تتقطع العلائق الدنيوية، فكل فرد يوم القيامة يرتبط بمن ارتبط به في الدنيا، فمن ارتبط بعلي ارتبط به غدا، فلابد أن نتأكد من هذا الامر؛ لأنه سوف نرتبط بمن تعلقنا به في الدنيا يوم القيامة ومصـــيرنا مرهون بمن نطيعه في الدنيا فلابد أن تكون الحجة قائمة تمانا عليه وإلا ســـوف نفرط بمســـتقبلنا الاخروي، وأن لا نتصـــور في القيامة القضـــايا بســـيطة

وسهلة، لا بل (...فلم يجز في عدله وقسطه يومئذ خرق بصر في الهواء)، فهناك دقة لهذا الحد يوم القيامة، حتى خرق البصر لا يجز في عدله وبسطه.

(فكم حجّة يوم ذاك داحضة) فكم من الناس يتصورون أن عندهم حجة ودليل وبرهان ولكن يتبين يوم القيامة بطلان هذه الحجة والدليل والبرهان ويكون مدحوضا، وباطلاً.

(وعلائق عذر منقطعة) فيتمسك ببعض الامور ويتخذها اعذارا فتتبين يوم القيامة أنها منقطعة ولا توصله إلى نجاة.

ثم يختصر أمير المؤمنين (ع) بكلمات ينبغي أن يهتم بها الانسان اهتماما بالغا وهي: (فتحرّ من أمرك ما يقوم به عذرك، وتثبت به حجّتك)، فأنت مقدِم على أمر فلا بد أن يكون عندك لكل خطوة من الخطوات جواب ليوم القيامة، ولا تكون حجتك داحضة ولا يكون عذرك منقطع فلابد أن تتحرى لكل قضية جوابا ليوم القيامة.

(وخذ ما يبقى لك ممّا لا تبقى له)، فلا يوجد منا من يبقى لشيء، فإن الموت لا يعرف صغيرا ولا كبيرا، ولا مريضا ولا صحيحا، فالقضية ليست قضية قابلة للتأجيل، فالتأجيل ساعة معناه تعريض النفس للهلاك الابدي، فكل فعل لك لا بد أن تعد جوابا له يوم القيامة إذا سألت عنه حتى جلستك في المجالس التي تتذاكر فيها الامور المعرفية، والتأجيل يعني أن الانسان يظلم نفسه، فهو من الناس الذين يضرون أنفسهم قبل أن يضروا غيرهم.

(وتيسّر لسفرك) فأنت في سفر فأجعل سفرك سفر سهل يسير، ولا تثقل حملك، فأنتم ترون في السفر بعض الاشخاص محتار في حقائبه وأين يضعها لكثرتها فيغرم ويتوسل بغيره لأن يحملها معه، وهناك شخص يحمل حقيبة واحدة يحملها بيده ويذهب بكل يسر، فأنت في سفر تحتاج فيه إلى زاد فخذ مما لا تبقى له ما يبقى لك.

(وشـم برق النّجاة) لاحظوا هذا التعبير كم هو رائع ورائق، فهو (ع) يقول: أن الامور التي فيها بصـيص أمل ونجاة كالبرق الخاطف الذي يحدث لمظة ضـياء فهذه تمسـك بها واعتنِ بها واهتم بها؛ لأن بحثك هو وراء ما ينجيك يوم القيامة.

إذن الخلاصة فيما نريد عرضه بخدمتكم:

١. النقطة الاساسية: أنه نحن نقيم كلام المتكلم فمن غير الصحيح أن يشيع بيننا هجران النص الديني بحجة البحث عن الادلة العقلية والبناءات العقلائية والمقتضـيات الفطرية، فإن النص الديني حافل بهذه الامور، ولا ينبغي الاعراض عن النص الديني بحجج واهية فلا بد أن يكون النص الديني حاضر بيننا، وأن تكون شـخصـية المؤمن تبنى على أسـاس النص الديني فهذه القضـية جداً مهمة، خصـوصـا مَن فرغ عن التدين. فلا يقول: إنني ثبت لي الدين ولا أحتاج للنص الديني.

٢. أننا نحن أمام مسـتقبل وهو خطير ومحتمل أن يكون كل واحد منا يواجه المسـتقبل عاجلا وليس ببعيدين عن المسـتقبل، فنحن لا نعلم بموعد الموت الذي هو حق على كل من خلق الله تعالى، ولابد أن يفهم الانسان أن هناك واقعية ولا يعيش بنرجسية زائدة، فلا يقول: أني في مقتبل العمر، ولا نجامل في هذه القضـية أبدا فلابد أن نضـبط أمورنا بشـكل مبكر فالقضـية غير قابلة للتأجيل، فإذا كانت عندنا مشـكلة في التوحيد مثلا فنبحث عن المشكلة والثغرة ونسأل عن جواب لها وحل لتلكم المشكلة.

وهؤلاء المؤمنون الذين يعتنون ويضـبطون حسـابهم يكرمون يوم القيامة إكراما مضـاعفا، فالمولى لم يخلق الجنة اعتباطا وإنما خلقها من أجل المؤمنين، والمهم أن يموت الانسـان على ولاية أمير المؤمنين وما عداه سـهل، فإن هناك من الناس انحرف عن الطريق وجادة الحق.

فنحتاج: لتثبيت الامور الاسـاسـية ونكون على بصـيرة دائمة. ونسـعى لديمومة هذا الامر وكلما تأتينا الشبهات عليه ندفعها.

وهذا يجعل وظيفة الانسان مضاعفة وهذا الذي يجعل بعض اصحاب الائمة (ع) وهو صغير يقيم البصرة بعلمه ولم يقعدها وهو هشام بن الحكم، فموقفه معروف عندما دخل البصرة قاصدا مجلس عمر بن عبيد، نذكر بعض الذي نقله وهو: (ثم قعدت في آخر القوم على ركبتيّ، ثم قلت: أيها العالِم أنا رجل غريب، أتأذن لي فأسألك عن مسألة؟

قال: أسأل!

قلت له: ألك عين؟

قال يا بني أي شيء هذا من السؤال، إذاً كيف تسأل عنه؟

فقلت: هذه مسألتي.

فقال: يا بني! سل وإن كانت مسألتك حمقى.

قلت: أجبني فيها.

قال: فقال لي: سل!

فقلت: ألك عين؟

قال: نعم.

قلت: قال: فما تصنع بها؟

قال: أرى بها الالوان والاشخاص.

إلى أن قال: قلت: ألك قلب؟

قال: نعم.

قال: قلت: فما تصنع به؟

قال: أميّز به كلما ورد على هذه الجوارح.

قال: قلت: أفليس في هذه الجوارح غنى عن القلب؟

قال: لا.

قلت: وكيف ذاك وهي صحيحة سليمة؟

قال: يا بني إنّ الجوارح إذا شكّت في شيء شمته أو رأته أو ذاقته، ردّته إلى القلب، فتيقن بها اليقين، وأبطل الشك.

قال: فقلت: فإنما أقام الله عز وجل القلب لشك الجوارح؟

قال: نعم.

قلت: لابد من القلب وإلاّ لم يستيقن الجوارح.

قال: نعم.

قلت: يا أبا مروان، إن الله تبارك وتعالى لم يترك جوارحكم حتى جعل لها إماماً، يصحح لها الصحيح، وينفي ما شكّت فيه، ويترك هذا الخلق كلّه في حيرتهم، وشكهم، واختلافهم، لا يقيم لهم إماماً يردّون إليه شكّهم وحيرتهم، ويقيم لك إماماً لجوارحك، تردّ اليه حيرتك وشكك؟!.

قال: فسكت ولم يقل لي شيئا.

فأوصله إلى القول بضرورة وجود امام لكل البشر. والمسجد كله اذعن بإمامة الائمة (ع) لأن الدليل غير قابل للرد.

قال: ثم التفت إليّ فقال لي: أنت هشام؟

قال: قلت: لا.

فقال لي: أجالسته؟

فقلت: لا.

قال: فمن أين أنت؟ قلت: من أهل الكوفة.

قال: فأنت إذاً هو. ثم ضمني إليه، وأقعدني في مجلسه، وما نطق حتى قمت.

فضحك أبو عبد الله .عليه السلام .، ثم قال: يا هشام، من علّمك هذا؟

قال هشـام: جعلت فداك يابن رسـول الله، إني أجلك وأسـتحييك، ولا يعمل لسـاني بين يديك.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: إذا أمرتكم بشيء فافعلوه!

قلت: هو كلامكم ألفت بينه ...)[٢].

هذا هشـام بن الحكم وهو شـاب فما أحوجنا نحن لهذا الامر أيضـا؟ فليس هو ثابت القدم فقط بل يثبت الاخرين ويبرهن على الضرورات على الاخرين فلا نريد منكم أن تكونوا ثابتين القدم فقط بل تكونوا سـبب في هداية الاخرين وسـبب في تبصر الاخرين ووصـول الاخرين وسـبب في نجاة الاخرين وسـبب في دفع الشـبهات عن الاخرين، أما لو قلتم أنا لسـنا في هذا الجانب بل انا أصـحاب اختصـاص، نقول: أن الجميع مسـؤول عن الدين مسـؤول عن الحقيقة.

ونسـأله الله أن يعيننا وأياكم أجمعين والحمد لله رب العالمين وصـلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

[٢]. الاصول من الكافي ج١ ص١٦٩ ح٣.